الرؤيا الجمالية للمرأة وتجلياتها في الكتابة الصوفية بين فعل الخيال وجمال التخيل

د.عبد الحميد شكيل
جامعة عنابة

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى تبيان فاعلية الرؤيا الصوفية للمرأة في تشكيل الشعر الصوفي، كونها فاعلة في تشكيل لغة رمزية، مبنية على الخيال الخلاّق، الذي يخرق المألوف، ويتشكل في دائرة الحلم التي تعدل عن عناصر الوجود في بعدها الحسي، و تتشكل في دائرة الحلم القائمة على التخيل، فتتشكل صور رمزية ذات أبعاد وجودية، قائمة على الحركة والتحول في القراءة و التأويل.

الكلمات المفاتيح: الرؤيا، المرأة، الصورة، الرمز، الخيال.

Abstract :

The purpose of this article is to show the effectiveness of soufism visions of women in foramlisation of mystical poetry based on symbolic language and creative imagination, which breaks the ordinary, and formed the image of women in imaginary sphere. these images have an existential dimensions, for it is based on movement and transformation in reading and interpretation.

Key words: vision, woman, image, symbol, imagination.

مقدمة:

إنَّ الدارسَ المتعمِّقَ للنص الشعريّ الصوفي يقف على أنه بنية كلية متسقة منسجمة في أبعادها اللغوية والوجودية، من حيث الجلال والجمال، غير أنّ الكشف عن كلّ ذلك أمر ليس بالسهل، لأن طبيعة النص الصوفي في مستوياته المختلفة مسألة تحتاج إلى آليات، وعدة معرفية، وفوق كل ذلك، يحتاج إلى تجربة ذوقية، تكون بسلوك الطريق، والتدرج في المقامات، من بعد التحقق بالانفصال، والاتصال.

مفهوم الرؤيا:

اقترن مصطلح "الرؤيا" بالنقد البنيوي التوليدي، وبكل تحليل ينزع إلى التأويل، فيعرف "الأثر من ناحية علاقته بالمجتمع الذي ينصهر فيه، وهو ليس انعكاسا شفافا، بل مجموعة دلالات ممزقة"[1]، حيث يلجأ القارئ إلى استعادة تجربة التشكيل لها من خلال تعليق القراءة[2]، فيكون بذلك الكشف عن جوانب الإبداع في النص الشعريّ القائم على دينامية الخيال الشعري التي تربط بين المبدع والمتلقي.

يخضع النص الصوفي في الأساس إلى رؤًى ترتكز في جانب منها على رؤيا فلسفية للوجود وللعناصر المشكلة له، كما أنه يستند على الذوق؛ وإذ تقوم لغة النص الصوفي على رؤيا تضيق بها العبارة، فإنه ينبغي الإشارة إلى أنه من الأهمية بمكان أن يتم التعامل مع هذا الضرب من النصوص بمنظور شمولي، وذلك بدراستها وفق نسق كليّ لأشكالها الكبرى، مع مراعاة الأشكال الصغرى، كما أنه لا يمكن فهم مدار الأشكال الصغرى وما تحيل عليه إلا بدراسة الأشكال الكبرى، و كل ذلك يمكِّن من الكشف عن رؤيا الوجود في حقيقته، من حيث طبيعته، وجلاله، وجماله.

يحيل مفهوم الرؤيا على قضايا الوجود الأساسية، لأنه يجعل من اللغة وسيلة عبور وكشف عن مجاهل الوجود، ويقضي على رتابة الأشياء، في طبيعتها، وفي طرائق اشتغالها، فتحمل اللغة بذلك خصائص الرؤيا التي هي أساس كل شعر مبدع أصيل، لأنَّ الشعر الصوفي هو في حقيقته إشارات ورموز، تعدل عن القواعد البلاغية القائمة على الإدراك المباشر، ليكون بذلك وسيلة لاكتشاف النفس، واكتشاف الإنسان في جوهره، والوجود في حقيقته، من حيث كونهما نسيجا واحدا في التشكل، والتحول الدائمَين القائمَين على التماثل والتناظر[3] والتكامل.

آليات قراءة النص الصوفي:

تتم دراسة النص الصوفي بالكشف عن علاقات الوحدات المشكلة له، من رؤيا صوفية تقف عند حقائق الوجود المتخيلة في مستوياتها المختلفة؛ ذلك أن الوحدات المشكلة للنص، وبالتالي للوجود، لها بنيات عميقة، ولابد للدارس أن ينطلق في دراسته من منطق الخيال الوجودي، و من منظور الرؤيا الصوفية، فتكون اللغة بذلك لغة رمزية، لأنها تعتمد على منطق الخيال، من أجل ذلك، تتمّ عملية التأويل للوحدات اللغوية في طبيعتها الرمزية بفكّ تلك الرموز انطلاقا من الخيال، من أجل إيجاد الصلة بين الرمز وما يحيل عليه.

يقول ابن عربي: (من الوافر):

ألا إن ٱلرموز دليل صدقٍ على المعنى المغيَّبِ في الفؤادِ[4]

تقارَب التجربة الصوفية من منطلقات مختلفة، من دينية، أو فلسفية، لكنَّ الكلَّ يتفق على أن النص الصوفي منفتح الدلالة، فتكون له أبعاد فلسفية، لأنه نص يكشف عن سر الوجود وموجده، انطلاقا من الذات الإنسانية الدالة على موجدها، ذلك أن الله خلق آدم على صورته، وتعد هذه الفكرة منطلقا ومحورا في كثير من النصوص الصوفية، والشرعية منها، والفلسفية على حدٍّ سواء، كما هو الشأن عند ابن عربي.

من الأهمية بمكان أن يكون القارئ للنص الصوفي مدركا أنه لابد له من الوعي بأن الكلام هو حدث يقوم على علاقة جدلية بين القارئ المستقبل والنص المقروء، وذلك من منطلق فكرة التأثير والتأثر من قبلِ الطرفَين، وذلك يتطلب سلوك الطريق المفضي إلى التخلص من العلائق، والتدرج بعد ذلك في المقامات.

يقول ابن عربي في هذا المقام ما نصّه : "ألا ترى العالِمَ الفهِمَ المراقبَ يتلو المحفوظَ عنده من القرآن ...لا يستقر على معنى واحد ثابت، فالمعنى في تجدد مستمر، ففي كل تلاوة معنى جديد لم يوجد في التلاوة الأولى، والحروف المتلوَّة هي بعينها ما زاد فيها شيء ولا نقص، وإنما الموطن والحال تجدد، ولا بدّ من تجدّده؛ فإنّ زمان التلاوة الأولى ما هو زمان التلاوة الثانية"[5].

إنَّ كل ذلك إنما يكون بالانفصال عن البدن اللازم للوجود في بعده العينيّ، ليكون بعدها الاتصال بعالم الملكوت، ويصير أهلا للتحقق بالمعاني، والكشف، والتجلي، وحينها يكون من أهل الشهود.

يقول ابن عربي في هذا الشأن: (من الوافر):

فؤادي عند معلومي مقيمٌ أشاهده وعندكمُ المعاني

وأسرارا تراءت مبهماتٍ مسترةً بأرواح المعاني[6]

يرى ابن عربي أنّ فهم الوجود والكشف عن طبيعته وحقائقه إنما يتم بوساطة اللغة، و العارف يرى العالم بأنه رموز متجددة متفاعلة بين فاعل ومنفعل، تتضمن دلالات غير متناهية.

محبة المرأة وفاعليتها في الرؤيا الصوفية:

تُعد محبة النساء في الرؤيا الصوفية وسيلة لمعرفة الذات، ومن ثمة معرف موجدها، والغاية من الإيجاد، وهي عبادة الخالق ذي الجلال والجمال.

يقول ابن عربي: (من الكامل):

إن التي كان الوجود بكونها ذاتا يقدّس لفظها معناها
إني لأهواها وأهوى قربَها منّي وأهوى كلَّ مَن يهواها
ليلى ولبنى والرّباب وزينبُ أتراب من حبي لها مَحياها
عجبا لنا ولها فإنَّ وجودَنا فردٌ فلا ثانٍ فمَن ثناها[7]

يعد مفهوم "الرؤيا الصوفية" للمرأة من القضايا الجوهرية في الإبداع الشعريّ الصوفي ذي البعد الرؤويّ؛ يتجاوز الشعر الصوفي الواقع انطلاقا من رؤيا خيالية لعناصر الوجود، تلك الرؤيا تقوم على الحلم، حيث يسافر الصوفي في رحلتَي تأمّل وكشف، متحولا عن عناصر الوجود في دلالاتها المباشرة، إلى عالم قائم على تماثل يتجلى في لغة رمزية قائمة على الانفصال والاتصال، وتحيل على وجود يحمل صفة اللانهائية[8].

إنَّ الانفصال عن دلالات العناصر المشكلة للوجود في بعدها العيني، واتصالها وفق رؤيا تحتكم إلى الباطن يجعل الوجود حاملا لصفة اللامعقولية، وذلك في حكم معظم الدارسين الذين اعتبروا التجربة الصوفية تجربة ذاتية، لا تحمل صفة الاتساع والامتداد والاحتواء في الأبعاد العينية والغيبية من جهة، وفي طبيعة الوعي المشكل للتجربة الإنسانية من جهة ثانية، التي تتقاطع في العناصر الجوهرية المشكلة لطبيعة الإنسان، في حقيقته، وفي جوهره، وذلك على اختلاف المشارب والمذاهب.

ألفاظ الوجود الدالة على الذات الإنسانية:

يرى ابن عربي أنّ فهم الوجود والكشف عن حقائقه القائمة على ثنائية متقابلة بين الفاعلية والانفعالية القائمة على الخيال في طبيعته، وتحوّله، وتجدّده إنما يكون ذلك باللغة في حدّ ذاتها، لأنه بفعل" كن" كان الوجود، ومن الحرفَين كان ذلك الوجود بجميع مراتبه ومكوناته.

لا يمكن فهم الوجود في حقيقته إلا بوساطة اللغة، و العارف حينما يرى العالم فإنّه يراه على أنه رموز متجددة لدلالات متوارية.

يقول ابن عربي: (من الرمل المجزوء):

إنّما الكون خيالٌ وهو حق في الحقيقة[9]

تعد المرأة في كتابات ابن عربي رمزا للقاء مع الحكمة المطلقة للوجود في جميع مراتبه وتجلياته، ففكرة الكائن الأنثوي هي سر لقاء الجمال والرحمة، وهما سرّ الوجود وسرّ استمراره، وبما أنّ الذات الإلهية تجمع بين الجمال والرحمة، فإنه يجب الكشف عن جمالها؛ و الكائن الذي يحمل في طبيعته وظيفة الجمال المتجلية، والخلق المتجدد إنما هي المرأة التي هي صور رمزية لسر الإله في جماله وفي قدرته،

و من هذه الرؤيا الحدسية تكون فكرة الأنوثة / المرأة ، باعتبارها صورة مثالية للسير في طريق العبادة والكشف والحدس.

يقول ابن عربي: (من الطويل):

رأيث ذكورا في إناث سواحرٍ تراءَين لي ما بين سلع وحاجرِ

فخاطبت ذكرانا لأني رأيتهم رجالا بكشف صادق متواترِ

وكنَّ إناثا قد حَمَلن حقائقا من الروح إلقاء لسورة غافر

وبعلهمُ الروحُ الذي قد ذكرتهُ وإنهمُ ما بين ناهٍ وآمرِ[10]

إن الحبَّ لدى الصوفي كيمياء كونية[11]، حيث تنصهر كل عناصر الوجود، في تفاعل قائم على النكاح الكوني المتجدد، وذلك حين تأخذ تلك العناصر بعدا رمزيا، فتدل على أسرار الخلق والجمال الدال على جمال الخالق في صفاته وتجلياته، فيكون الوجود القائم على النكاح الكوني المتفاعل هو صورة لتفاعل الذكر والأنثى، تلك الصور تتجلى أكثر في المرأة، باعتبارها مصدر الرحمة والخلق والجمال.

إنَّه فعل الخلق المتجلي في فعل النكاح الناجم بين الرجل والمرأة في أجلى صورها، الساري في جميع عناصر الخلق في مختلف أشكالها، هو فعل قائم بين الفاعل والمنفعل:

يقول ابن عربي: (من الطويل):

فالكل يدخل تحت الحصر أجمعهُ وليس ثمَّ سوى مَن ليس يمَّنعُ

فاعجب لمنفعل في ذاتِ منفعلٍ يكنْ بها فاعلا والكلّ منفعلُ

على وجودِ الذي قلناه من عَجَبٍ وكلّهمُ بالذي جئنا به قطعوا[12]

يدل الفعل في فكر ابن عربي على معانٍ متعددة، ومما يدل عليه في هذه الأبيات فكرتَي الذكورة والأنوثة، إذ أنَّ الذكورة تُعبر عن الفاعلية، والانفعال يدل على الأنوثة، وبذلك إنَّ الوجود لا يقوم إلا على أنه " تركيب من وجهَين، وجه يؤثر ليتصف بالفاعلية والذكورة، ووجه يتلقَّى التأثير ويُنعت بالانفعال والأنوثة. فتتخذ الأنوثة والذكورة طابع مبدأين عامين وكليين، ينعكسان عبر اختلافٍ صفاتيٍّ "[13]، وتكون رؤيا الوجود عند ابن عربي قائمةً على صفات القهر واللطف، والغضب والرضا، فتنسب صفات القهر والغضب للذكورة، واللطف والرضا للأنوثة[14].

يتشكل الوجود في الرؤيا الصوفية بواسطة اللغة الرمزية، ولا يمكن أن يكون إلا كذلك، لأن الوجود ليس سوى رموز من أجل عبور إلى عوالم الكشف الذي يتشكل " تحولا وصعودا دائمَين في أقاليم الغيب من أجل اتحاد الإنسان بالوجود، بصورة أعمق وأغنى، وأشمل: اتحاد الواقع والممكن، الزمنيّ واللازمني، الشيء والخيال(...)"[15].

من أجل ذلك إنَّ البحث عن طبيعة النص الشعري الصوفي هو بحث عن مضامين، ومعالم ليست لها بداية محددة على وجه اليقين، وليست تعرف نهاية أيضا.

يتقاطع الشعر الصوفي مع التجارب الشعرية الإنسانية، لأنَّ الشعر الأصيل في تجربته يقوم في مجمله على المماثلة بين اللغة الشعرية، والنزعة التأملية التي تنطلق من الداخل، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الصوفية التي

تتعامل مع عناصر الوجود من منظور تأملي نابع من رؤيا ذاتية، وتقوم على رؤيا متفردة للوجود، هو بديل عن وجود قائم على إرغامات، ورؤًى تضيق بها تأملات الصوفي والشاعر على حدٍّ سواء، لأن الشعر في جوهره ينبغي أن يقوم على رؤيا للأشياء، ومن ثمة رؤيا متفردة للوجود.

رمزية المرأة في الشعر الصوفي:

يعتمد النص الشعري الصوفي في تناول موضوعة المرأة على الخيال الشعري الذي يقوم على تتبع تقنية إنتاج الخيال للصورة، بقراءة النص من الداخل، من منطق الخيال الماديّ الذي ينطلق من عناصر الطبيعة في بعدها الماديّ، حيث تكون اللغة فاعلة في تشكيل بُعدٍ في داخل الذات القارئة لذلك النص، حين تثير أحلاما تنتج عن تشكيل الأشياء بطريقة مبدعة، من منطلق التخيل للأشياء، ومن منظور النص الحامل لتلك العوالم المتخيلة، والدالة عليه هي طبيعة النص في طريقة تشكيله للأشياء، من منطلق الخيال المادي، الذي تمتزج فيه الرؤيا، وتتجلى في خصائص اللغة الرمزية المبدعة في قوانينها الجوهرية القائمة على التحول، ومن منطلق العلاقات بين الوحدات اللغوية، ووفق البنية العامة للنص، ومن منطق السببية؛ تلك العوامل مجتمعة تجعل النص ذا بنية شاملة منتظمة، يتشكل بوساطتها عالم الشاعر القائم على المتخيل الشعريّ المتحول المتجدد، لأنه يقوم على مبدأ التماثل، فيحيل على عالم بديل ذي حمولة شاملة لتجربة الإنسان في أصولها وامتدادها، مهما تعددت المشارب والمذاهب.

يتجلى الوجود المتخيل في الشعر الصوفي من خلال المرأة التي تتشكل في داخل الذات المبدعة التي ترى المرأة في صفاتها الرمزية بديلا عن الوجود في بعده العيني. من أجل ذلك تكون قراءة تلك الصور التي تشكلت في خيال المبدع، وتجلت من منطق التخيل، تكون بتحويل العناصر الحسية للصور المتشكلة للمرأة بفعل الإدراك، إلى فاعلية القراءة التي تكون من أفق رؤيوي ذي بعد وجوديّ، يخرج عن الصور المألوفة في الفهم والتفسير والتأويل، فتكون القراءة في مراحلها الأولى معتمدة على فن الفهم. بالوقوف على الرؤيا ذات الخصائص الجوهرية في فهم الأشياء، و إعادة تشكيلها، وإخراجها في صور فنية جديدة.

يعتمد الصوفي في التعبير عن تجربته على رؤيا خاصة للوجود، تنطلق من عناصره الجزئية القائمة على الأضداد، وتتناسب وفق رؤيا شمولية، فتتكامل في بنيته الكلية، فتشكل وحدة في تنوع، وذلك في مقام وحدة الشهود الصوفية.

من أجل ذلك، يعد تحول الصوفي في مقامات الكشف، والأحوال التي ترد عليه، تعد الأساس الذي يحقق له الرؤيا. هذه الرؤيا تكشف عن المطلق، وتشير إليه من خلال لغة رمزية، عمادها الحدس والذوق، ومنطقها البصيرة؛ ووسيلة الكشف عنها هو الخيال الذي هو أساس الوجود، لأن الوجود في حقيقته ليس سوى خيال متحول، لا يعرف حدودا، ولا سكونا، كما أن الخيال هو خير وسيلة لبلوغ المعرفة التي تعدل عن المعرفة المباشرة، التي تحتمكم إلى الإدراك المباشر في حدود قوى العقل الضيقة، وهي قُوى قاصرة عن إدراك الوجود في حقيقته، و شموله.

يكمن جمال الرمز الذي يتشكل من رؤيا خيالية في كونه غامضا، لأنه انتقال يقوم على حركة الوجود الدائبة في الخلق غير المتناهي القائم على الجلال والجمال، ذلك التحول يكون بالاندماج بين عناصر الوجود

لتكشف عن حالات وأحوال، ومقامات، وكشوف تتم بحركات صعودا وهبوطا من الظاهر إلى الباطن، ومن الباطن إلى الظاهر، "حيث الكونُ والمخلوقات كلمات الله، واللغة ليست مدونة تقابل الكلمات بالأشياء فحسب، بل إنها جزء حيّ من هذا الكون"[16].

فالإنسان حالتئذ يشهد كلَّ شيء بشهود أحدية جمع الحق في قابلية كل شيء، وهذا المدرك لا يعطيه إلا الشهود الأقدس في طور، هو وراء طور العقل.

وثمَّ وراء النقل عِلمٌ يدق عن مدارك غايات العقول السليمة"[17]

لذلك تعد المرأة في رؤيا الصوفية رمزا للقاء والاندماج بين عناصر الوجود، في طبيعتها، والحكمة من إيجادها، وذلك في جميع مراتبه، وتجلياته، كما أنَّ الرمز الأنثوي دال في حقيقته على اندماج الجمال والرحمة اللذين هما سر الخلق والوجود، وكما أن الذات الإلهية تجمع بين الجمال والرحمة، فإن المرأة تعد الرمز الذي يحمل في طبيعة تكوينه الجمال والرحمة المتجلِّيين في الخلق المتجدد.

<u>صور المرأة المتخيلة :</u>

إن صور المرأة في أشعار المتصوفة هي صور رمزية تدل في حقيقتها على الخالق في جماله وجلاله، وصفات المرأة الجسدية والمعنوية هي وسائل للتعبير عن الحب الإلهي، وطريق للتحقق بمقام الشهود الذي يتجلى من خلالها، وهي في الوقت ذاته وسيلة عبور للكشف عن حقائق الوجود الدالةِ على جمال الخالق؛ وبذلك إنّ الرؤيا الحدسية لرمز المرأة التي تكون في صورتها المثالية هي صورة للسير في طريق العبادة، والكشف عن حقيقة الوجود في حقيقته الدالة على عظمة الموجد وجماله.

تقوم رؤيا المتصوفة على أنَّ اللغة " ليست مدونة تقابل الكلمات بالأشياء فحسب، بل إنها جزء حيّ من هذا الكون"[18] ، وذلك بتجاوز فكرة الثنائية بين المعقول واللامعقول؛ تلك الرؤيا للغة تؤسس لطبيعة الوجود القائمةِ على الخيال، الذي يحكمه من حيث تشكله الدائم المستمر في حركته وتحولاته وتجلِّيه.

يقول ابن عربي في هذا الشأن:[(19)]

لو لا الخيال لكنّا اليوم في عدمٍ ولا انقضى غرض فينا ولا وطرُ[20]

يلغي الخيال الحدود الفارقة بين الأشياء، من حيث طبيعتها، وإدراكها، ويتأتي ذلك بحسب الذات المدركة من جهة، وعلى طبيعة المدركات أيضا، كل ذلك عائد إلى الأصل الميتافيزيقي لفعل الخيال، على اعتبار أن هذا الأخير إنما هو عالم "المثال" الذي يقع بين عالم الأجسام، وعالم الأرواح المجردة، إنه البرزخ.[21]

يقوم الوجود في رؤيا المتصوفة على أن المرأة في طبيعتها، وفي صفاتها وتجلياتها هي صور دالة على الوجود في حقيقته، ومراتبه، وجماله، وتجلياته، ويكون ذلك بوساطة علاقة تكون بامتزاج صفات الأنوثة بصفات الذكورة الدالة على حقائق الوجود في طبيعته، وتشكيله، وتحوله. و يرى ابن عربي أن صفات الإنسان في ثنائيته القائمة على الذكورة والأنوثة المتقابلة ظاهرا هي بمثابة مرآة للخالق في معرفته، والفناء فيه في حضرة الشهود، وهي في حالة انجذاب مستمر من خلال الحب الذي يأخذ بعدا وجوديا، من خلال فكرة الأنوثة التي تسري في عناصر الوجود، غير أنها تتجلى في أبهى صورها في المرأة.

لا يستطيع السالك في دروب الكشف أن يعرف نفسَه، وبالتالي ربَّه، من دون معرفة الأنثى. و هكذا تصبح الأنثى رمزا لوصل ما انقطع، وتصبح الذكورة والأنوثة رمزَين لحالتَين كونيتَين، فكلاهما عنصران أساسيان في كل ما هو موجود، وهما القطبان اللذان يكمِّل بعضهما البعض :أحدهما ناشط -الذكر -والآخر متلقٍّ– الأنثى -وهذان القطبان في تفاعل مستمر، وهما مجتمعان معا من خلال قوة الحب، و يقود هذا إلى مفهوم ابن عربي لموضوع التجلي، لأنه المفهوم الذي يرتكز عليه فكره إجمالا .

يقول ابن عربي[22]:

إن الفراق مع الغرام لَقاتلي صعب الغرام مع اللقاء يهون[23]

يقول: إن للغرام في الحب سلطانا عظيما، يقتلك فيه التحول والهيمان والدموع والغليل والأنين والسقام وجميع الآلام التي يوجبه الغرام، و يجتمع مع ذلك الفراق، وهو الغيبة عن مشاهدة المحبوب، برجوعه إلى كونه (...) وحرقة الشوق أشد للمفارقة، ولهذا ينبغي للعارف أن لا يقف إلا مع الذات، و لا يتعشق باسم دون اسم، فإنه في كل حال مفارق لاسم مواصل لآخر.

ويقول في موطن آخر:

ما لي عذول في هواها إنها معشوقة حسناء حيث تكونُ

يرى ابن عربي أن فكرة النكاح تكشف عن طبيعة الوجود وأسراره، كما أن المرأة هي وسيلة للكشف عن حقيقة الوجود، لأنها ترمز إلى معنى التوالد المرادف لمعنى الولادة المستمر للوجود، والتحول، والتجدد، فالكائن دائما في توق من أجل الآخر، الآخر الرامز إلى التحقق بالكمال، وجودا واستمرارا، فتكون هذه الحركة هي حركة كونية، ومن الحركة السارية في الكون "تتوالى المعاني، أو التجليات على الممكنات، ويتجدد الخلق باستمرار"[24]، ويتحقق السالك في دروب الكشف بمقامات متدرجة في المعرفة.

يبدأ المقام الأول بالمقدرة الشهودية، وتكون الرؤيا بالقلب في حال التأمل، فيكون المقامُ مقامَ التجليات، في رؤيا تُمكِّن من الرؤيا الروحية للمحسوس، والرؤيا الحسية للروحي، لا تدركها الملكات الحسية المباشرة، وإنما الخيال باعتباره عضو إدراك التجليات.

وفي المقام الثاني، يكون الكشف عن التجارب الروحية، بوساطة فكرة الأنوثة باعتبارها رمزا للتجلي الذي لا يمكن تأويله إلا بوساطة الرؤيا التي تقيم تناسبا بين السماء والأرض.

يقول ابن عربي: (من الرمل):

كل ما فيه نكاح وازدواجْ هو مقصود لأرباب الحجاجْ[25]

من أجل ذلك تعد المرأة في كتابات ابن عربي رمزا للقاء مع الحكمة المطلقة للوجود في جميع مراتبه وتجلياته، ففكرة الكائن الأنثوي هي سر لقاء الجمال والرحمة، وهما سر الوجود وسر استمراره، وبما أن الذات الإلهية تجمع بين الجمال والرحمة، فإنه يجب الكشف عن جمالها؛ و الكائن الذي يحمل في طبيعته وظيفة الجمال المتجلية، والخلق المتجدد إنما هي المرأة، التي هي صور رمزية لسر الإله في جماله وفي قدرته، و من هذه الرؤيا الحدسية تكون فكرة الأنوثة / المرأة باعتبارها صورة مثالية للسير في طريق العبادة والكشف والحدس.

إن صفتي الذكورة والأنوثة، أو الأنوثة والذكورة ليسا يرتبطان بالجانب الطبيعي الجنسي في صورته المادية المباشرة، وإنما يرتبطان بالصفات المعنوية، تلك الصفات التي تدل على الحقائق للوجود، ومنها الوجود الإنساني.

ترتبط صفتا الذكورة والأنوثة بفكرة الفاعلية والانفعال، من حيث كون الفاعل الدال على العقل، الصادرة عنه الفاعلية في ذاته، تصدر عنه الموجودات تلقائيا، وليس في حاجة إلى الانفعال في ذاته، حين يكون بعيدا عن عالم المادة، وفي حال نزوله إلى عالم المادة، مع ما يتصف به من كثرة وتعدد، فإنه لا يمكن أن يكون وجودا إلا من خلال الأنثى القابلة للانفعال في طبيعتها، ومن كل ذلك كان الوجود قائما على التقابل من الفاعلية والانفعال، وذلك في كل مستويات الوجود[26].

إن فكرة الذكورة والأنوثة تسري في جميع الموجودات، وفي مختلف مراتبها، و "ما خلق الله شيئا إلا خلق له ضدا ومثلا وخلافا، فجعل الموافقة في الخلاف، والمنافرة في الضد، والمناسبة في المثل، فأشد الأشياء مواصلة ومحبة واتحادا الخلاف مع مخالفه."[27]

إن هذه الرؤيا من شأنها أن تفتح آفاقا للوجود، ومنها الوجود الإنساني، في إيجاد تكامل بين الرجل والمرأة، كون هذه الأخيرة فاعلة في الوجود واستمراره، من حيث تحقق الإنسان بالكمال، كما الخلق، والاستمرار فيه، وجودا وجمالا.

إذا تناولنا ما تشير إليه المعاجم اللغوية، من أنَّ اسم الذكر، والذكير، يرجع إلى معنى الشدة والحدَّ، ،ويقابلها لفظ الأنيث. فالجمع بين المعنيين هو إشارة إلى الجمع بين الهمة والحزم، واللِّين اللَّذين يكونان من بعد الوصل، لِينٌ يدلّ على الراحة واليقين، من بعد سير حثيث، و مجاهدة مستمرة، وصبر وتصبر، وبعد كل ذلك يكون وصل بالجمال المطلق من خلال صفات المرأة الجسدية[28].

يقول ابن عربي:

يا طللا عند الأثيل دارسا لا عبتُ فيه خرَّدا أوانسا

قوله: دارسا يريد متغيرا، بما يرد عليه من أحوال، فيتغير من حالة إلى حالة، وإذا تغير إلى حالة ما، فقد ذهب أثره من الحالة التي انتقل عنها حتى أعقبها. وقوله (لاعبتُ فيها خرَّدا و أوانسا)، أراد بالخرَّد الحكم الإلهية، التي يأنس الاطلاع عليها قلب العارف، فهو يتذكر حالته التي كان عليها، عند فنائه عن عالم الفناء والدثور[29].

ويقول أيضا:

يا طلولا برامة دارساتٍ كم رأت من كواعب حسانٍ

عنى (بالطلول) القُوى الجثمانيات منه، وأراد (برامة) مِن رامَ يروم، وهي المحاولة. وهذا هو النداء المنكر، يقول: أيتها القوى !كم تحاولي تحصيل ما لا يمكن تحصيله، وأنت محل التغيير والتلوين، من حال إلى حال، فإن الدارس هو المتغير. و(الكاعب) التي صار ثديها كالكعب، وهو أول شباب الجارية، والإشارة إلى ثدي هذه الحكمة ، لأنها تحمل اللبن الذي هو الفطرة (...)، من ذلك فإن اللبن الذي يحمله الثدي الواحد، كنى عنه بعلم الأولين، واللبن الذي يحمله الثدي الآخر كنى عنه بعلم الآخرين، وبينهما موضع الجمع لتحصيل

العلمين، ليقع بذلك للعالم التمييز، إذا وقع منه الإحساس في ذلك الموضع. كما قال: "بينهما برزخ لا يبغيان" لئلا يقع الالتباس"[30] .

وبذلك، تتجلى جماليات الخطاب الصوفي، في بعده التأويلي للوجود، فآيات الخلق للعالم، وبعثه، هي ذات حمولات رمزية، والوجود عندهم كتاب مفتوح على تأويلات متعددة، فتكون اللغة عندهم مفتوحة على كل تأويل، لأن الوجود يقوم على الخيال الذي يجعل من ذلك التأويل إجراءا جماليا، يكون الخيال "محرك هذا التأويل، الذي هو ارتقاء مستمر للروح.

ذلك ما يميز التجربة الصوفية، كونها تجربة الرحلة والعبور، فهي تنقض كل معنى ثابت، ومتداول، فتكون المعرفة كشفا مستمرا، أي بالاندماج في الوجود، في جميع مراتبه، وسيلتها في تجربتها تلك الخيال الذي يمزج بين المتناقضات، طلبا لحقائق، هي في انفتاح دائم على كشف جديد، تكشف عنها الرؤيا القائمة على الرحلة/السفر، عبر الوجود في جميع مراتبه، وتجلياته، ويتم كل ذلك من خلال جسد المرأة الذي هو في رؤيا الصوفية ميدان خصب للتناسل القائم على الفاعلية الكونية المبنية على الإبداع المستمر للوجود القائم على الحركة، والتفاعل، والتحول، وهو بذلك وسيلة لمعرفة الباطن، بعد أن يتجاوز الإنسان المسافة الفاصلة بين الجسد، والوجود، والموضوعات الخارجية، فيكون الاندماج في عناصر الوجود، بغرض الوحدة والفناء في الوجود، والوسيلة في ذلك القلب/ الذوق، من خلال لغة تكشف عن اليقين، من خلال التواصل مع الغيب، والإقامة في عوالم الحلم القابل لتشكيل صور متعددة متنوعة، فيصاغ كل ذلك في لغة إشارية.

إن فعل الجسد وفق هذه الرؤيا هو خط فاصل بين ضربين من اللغة/ الشعر، الضرب الأول، ويتمثل في شعر المرأة الذي يجيد وصف محاسنها، وهو في أغلب الحالات شعر حب وهيام؛ وأما الضرب الثاني، فيتمثل في ذلك الشعر الذي اتخذه بعض الشعراء في التعبير عن قضايا المجتمع الذي تمارس عليه ألوان من الاضطهاد، ومن خلال العلاقة مع المرأة يؤسس الشعراء لرؤى بديلة في الكشف عن عيوب المجتمع، وعن الحلول الكفيلة للخروج به من أتون الجهل والتخلف.

إن هذا المعنى يتقاطع مع البعد الصوفي؛ يقول ابن عربي في هذا المعنى:" كيف تنكر الحب وما في الوجود إلا هو، ولولا الحب ما ظهر، فمن الحب ما ظهر، وبالحب ظهر، والحب سار فيه، والحب ينقله.... لا يصح نكران الحب، فبالحب حرّك المحرك، وبالحب تحرك المتحرك، وسكن الساكن، وبالحب تكلم المتكلم، وصمت الصامت." [31]، فكان بذلك، أن كان النكاح، أي الفعل الجنسي هو سر الإيجاد، وهو سر الجمال الإلهي، ذلك الفعل؛ منه الإلهي، ومنه الروحاني، ومنه الطبيعي الذي يكون بين الذكر والأنثى، ويعنى بالأول توجه الأمر الإلهي إلى الوجود بالإيجاد، في مختلف مراتبه وتجلياته، من أجل ذلك، كان النكاح سر الوجود، وهو أصل في كل الأشياء، فما "ظهر العالم إلاّ عن هذا التوجه الإلهي(....)، فكان النكاح أصلا في الأشياء كلها، فله الإحاطة والفضل والتقدم"[32] ، في تشكيل الوجود، وضمان تشكيله،واستمراره.

يتبين لنا، ممّا سبق ذكره أنَّ دلالات الألفاظ الدالة على المرأة، وعلى النكاح تبقى ألفاظا منفتحة، وتكون لانهائية في التأويل لوجود متخيّل، يتجلى في صور لا تعرف نهاية في الرؤيا والتشكيل، لأنها تخضع لمبدأ

الخلق المتجدد الناجم علن الاتصال بجسد المرأة، في بعده الحسي، لكنَّ القراءة تكون بالانفصال عن الألفاظ في بعدها الحسي، لتكون الدلالة منفتحة متجددة انفتاح الخلق على الحكمة، وعلى التجدد.

الخاتمة:

تتمثل قيمة الرمز في الشعر الصوفي في أنه قائم على التماثل والتناظر في التعبير عن قضايا الوجود في بعديه الاتصالي والانفصالي، وذلك بين عناصره المشكلة له في حالة الرؤية القاصرة عن فهم الوجود في حالة الاتصال، والرؤيا الصوفية المتبصرة، الذي تراه أفقا جامعا بين عناصر متقابلة متكاملة، في حالة الانفصال، ويعد ذلك وعيا متفردا بآلية تشكيل الوجود من منطلق الفعل الذي هو وسط بين الفاعلية والانفعالية، ومن رؤية علاقة الذكورة والأنوثة التي تسري في جميع الموجودات، وعلى الوجود في جميع مراتبه وتجلياته، وفق رؤيا ذات قدرة على تمثيل الأشياء، تتجلى في رموز لها أبعاد وجودية، ومعرفية، وإنسانية، يمثلها الإنسان الكامل الذي هو جامع لحقائق الوجود من خلال المرأة التي تعد عنصرا جوهريا في تشكيل الوجود من جهة، وفي جود الإنسان الرجل ذاته الذي لا يكتمل وجوده إلا من خلال نصفه الآخر / المرأة.

الهوامش:

[1]- انظر: فؤاد منصور: النقد البنيوي الحديث بين لبنان وأوروبا، دار الجيل، بيروت، ط1، 1985، ص 113.

[2] -انظر: مقدمة غالب هلسا لكتاب: غاستون باشلار، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، ط2، 1984، ص، 6.

[3] د/ حسن سمان: التماثل والخطاب الصوفي، نظرية في كونية البنية وشمولية الوعي، رؤية للنشر والتوزيع، 2011، ص، 24، 25.

[4] - نصر حامد أبو زيد:" من يقود مركبة المجاز" في مجلة البلاغة العربية، العدد 12، 1992، ص، 220، 221.

[5] - ابن عربي: الفتوحات المكية، الفتوحات المكية ، تحقيق عثمان يحي، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة، 1974، ج4، ص، 256.

[6] - ابن عربي: رسائل ابن عربي، تقديم محمود محمود الغراب، ضبط محمد شهاب الدين العربي، دار صادر، بيروت، ط1، 1997، ص، 173.

[7]-ابن عربي: الفتوحات، ج3، ص، 314.

[8] - Gaston Bachelard: la poétique de l'espace; presse universitaire de France, 1957,p, 170.

[9] - ابن عربي: فصوص الحكم، تحقيق أبو العلا عفيفي، 1980، ص 159.

[10] - - نزهة براضة: الأنوثة في فكر ابن عربي، دار الساقي، ط1، 2008،ص، 25.

[11]- أحمد بلحاج آية ورهام: الرؤية الصوفية للجمال، منطلقاتها الكونية وأبعادها الجمالية، مؤسسة البشير للتعليم الخصوصي،ط1، 2008، ص، 139.

[12]-ابن عربي: الفتوحات المكية: ج3، ص، 290.

[13]-نزهة براضة: الأنوثة في فكر ابن عربي، ص، 31.

[14]- ابن عربي: الفتوحات المكية، ج4، ص، 425.

[15] -أدونيس: مقدمة الشعر العربي، دار العودة، ط1، بيروت، 1989، ص، 139.

[16] - العربي الذهبي، شعريات المتخيل، اقتراب طاهراتي، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص، 74.

[17] - ابن عربي: التجليات الإلهية، تعليقات ابن سودكين، وشرح الغايات في شرح ما اكتنفت عليه التجليات، تحقيق إسماعيل يحي، مركز نشر دانشكاهي، طهران، 1208ع/1988، ص 240، 241.

[18] - العربي الذهبي، شعريات المتخيل، ص 74.

[19] - ابن عربي: الفتوحات المكية، ج 4، ص 406.

[20] - ابن عربي: الفتوحات المكية، ج 4، ص 406.

[21] - ابن عربي: الخيال، عالم البرزخ والمثال، جمع وتأليف محمود الغراب، دار الكتاب العربي، دمشق، ط2، 1993، ص 08.

[22] - Henri Corbin L'imagination créatrice dans le soufisme d'Ibn Arabi, Ed. flammarion, p, 154.

[23] - ابن عربي: رسائل ابن عربي، ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق، تحقيق وتقديم سحبان أحمد مروة، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص، 77.

[24] - نزهة براضة: الأنوثة في فكر ابن عربي، ص 78.

[25] - ابن عربي: الفتوحات المكية، ج3، ص 311.

[26] - نزهة براضة، الأنوثة في فكر ابن عربي ص: 29.

[27] - انظر: ابن فارس: معجم مقاييس اللغة: تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة، والنشر والتوزيع، 1979، ج6.

[28] - ابن عربي، الفتوحات، ج: 3، ص، 269.

[29] - ذخائر الأشواق، ص، 124.

[30] -ابن عربي: ذخائر الأشواق، ص، 116،117.

[31] - ابن عربي: كتاب الإعلام بإشارات أهل الإلهام، مطبعة جمعية دار المعارف العثمانية، ط1، ص 6.

[32] - ابن عربي: الفتوحات ج2، ص، 176.